

# رِثَاءُ قَدْوَةِ الْعُلَمَاءِ

بِطَم  
جراح الأنصاري

1438 هـ | 2017 م

الوفاء

مؤسسة الوفاء الإعلامية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ



الحمدُ لله، والصَّلَاةُ والسَّلَامُ على خير خلق الله، سيِّدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم،

وبعد:

قال الله تعالى: ﴿إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: 140].

إنَّها سنَّةُ الله تعالى في مداولة الأيام بين الناس، فمن المحالِ دوامُ الحال.

ثمَّ تأمل هذا الترتيب الإلهي العجيب في الآية، قال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ ثم أتبعها بقوله: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾ فيه إشارة إلى أن من صفات الشهداء الإيمان، وأي فضل بأن يشهد الله -تبارك وتعالى- لأحدٍ بالإيمان!!



قال سيد قطب رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: ﴿وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ﴾: "وهو تعبير عجيب عن معنى عميق، إن الشهداء لمختارون يختارهم الله من بين المجاهدين، ويتخذهم لنفسه - سبحانه - فما هي رزية إذاً ولا خسارة أن يستشهد في سبيل الله من يستشهد، إنما هو اختيار وانتقاء، وتكريم واختصاص.

إن هؤلاء هم الذين اختصهم الله ورزقهم الشهادة، ليستخلصهم لنفسه - سبحانه - ويخصهم بقربه، ثم هم شهداء يتخذهم الله، ويستشهدهم على هذا الحق الذي بعث به للناس، يستشهدهم فيؤدون الشهادة، يؤدونها أداء لا شبهة فيه، ولا مطعن عليه، ولا جدال حوله، يؤدونها بجهادهم حتى الموت في سبيل إحقاق هذا الحق، وتقريره في دنيا الناس، يطلب الله - سبحانه - منهم أداء هذه الشهادة، على أن ما جاءهم من عنده الحق، وعلى أنهم آمنوا به وتجردوا له وأعزوه، حتى أرخصوا كل شيء دونه؛ وعلى أن حياة الناس لا تصلح ولا تستقيم إلا بهذا الحق؛ وعلى أنهم هم استيقنوا هذا، فلم يألوا جهداً في كفاح الباطل وطرده من حياة الناس، وإقرار هذا الحق في عالمهم وتحقيق منهج الله في حكم الناس، يستشهدهم الله على هذا كله فيشهدون، وتكون شهادتهم هي هذا الجهاد حتى الموت، وهي شهادة لا تقبل الجدل والمحال!

وكل من ينطق بالشهادتين: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله؛ لا يقال له أنه شهد إلا أن يؤدي مدلول هذه الشهادة ومقتضاها، ومدلولها هو ألا يتخذ إلا الله إلهاً، ومن ثم لا يتلقى الشريعة إلا من الله، فأخص خصائص الألوهية التشريع للعباد؛ وأخص خصائص العبودية التلقي من الله، ومدلولها كذلك ألا يتلقى من الله إلا عن محمد بما أنه رسول الله. ولا يعتمد مصدرًا آخر للتلقي إلا هذا المصدر، ومقتضى هذه الشهادة أن يجاهد إذاً لتصبح ألوهية الله وحده في الأرض، كما بلغها محمد - عليه الصلاة والسلام -، فيصبح المنهج الذي أراده الله للناس، والذي بلغه عنه محمد - عليه الصلاة والسلام - هو المنهج السائد والغالب والمطاع، وهو النظام الذي يصرف حياة الناس كلها بلا استثناء.

فإذا اقتضى هذا الأمر أن يموت في سبيله، فهو إذاً شهيد، أي شاهد طلب الله إليه أداء هذه الشهادة فأدّاها، واتَّخذه الله شهيداً، ورزقه هذا المقام<sup>(1)</sup>. هـ.

من رحمة الله تعالى بالعبد وجميل امتنانه عليه أن يجمع له بين أعظم الأعمال وأفضلها، وهذا ما كان للشيخ "تركي البنعلي" -أو أبي حذيفة محمد بن عبد الرحمن البحريني أو أبي سفيان السلمي أو أبي همام الأثري رحمة واسعة-، فلقد يسّر الله تعالى له أن يتشرف بطلب العلم الشرعي وبالجهاد في سبيله تعالى، ليكون جهاداً على بصيرة، وهذا لا يدركه إلا من علّت همته، وهو ما كان للشيخ -نحسبه كذلك والله حسيبه-، وتلك الكنى والأسماء التي كان يتسمّى بها الشيخ وُقِّعت بها عشرات الكتب والمقالات والرسائل والفتاوى، التي عمّ نفعها مشارق الأرض ومغاربها، وبعضها تُرجم للغات أخرى، فلا تكاد تجد موحّداً لم يمر على ورقة من ورقات الشيخ المكتوبة، أو مادة صوتية أو مرئية له.

لقد عُرف الشيخ بقلمه السيّال وعلمه الغزير رغم شبابه، فما إن تخرج شبهة من قبِل أعداء الجهاد أو من حثالة بلاعنة القاعدة المنحرفين؛ حتى يُبادر إلى تفنيدها وردّها في وجوههم، مما زاد من حقد الخصوم عليه، فهم يعرفون قوّته العلمية حتى قبل هجرته للدولة الإسلامية، فلا تتعجّب أخي الموحد من شدة الفرحة التي يُبديها أعداء الدين إذا أتاهم خبر مقتل أحدٍ من أمراء وعلماء الدولة الإسلامية، ولكننا نبشرهم أن الدولة الإسلامية باقية -بإذن الله-، ولن تنتهي أو تزول أو تضعف بمقتل أحد من الكرام، وإن الله قد أبقى لكم -يا أعداء الله- ما يسوؤكم من إخوان الشيخ وتلاميذه.

لقد كان بإمكان الشيخ رحمة واسعة أن يعيش كما يعيش باقي طلاب العلم في الخليج أو باقي العالم، فطالب العلم الشرعي في ظلّ أنظمة الطواغيت يدرس ثم يتخرج، لينتهي به المطاف مُدرّساً أو خطيباً في وزارة الأوقاف تحت ظل الطاغوت، دون أن يكون له أيُّ دور في التأثير والتغيير في حياة الناس، بل لقد حدّد الطاغوت لحمير العلم الموظفين في حكومته حدود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقَيّد عليهم مساحة

(1) في ظلال القرآن (1/ 454).

عملهم وأوهمهم بأنها حُرِيَّة، ثم تراهم يتنافسون فيما بينهم لاستغلالها قائلين: في هذه البلد يُسمح بحرية الدعوة!!

وهذا -لعمركم الله- هو امتنان ومِنَّة من النظام الطاغوتي المجرم على عبيده الصاغرين، حسبنا الله ونعم الوكيل، وكأن البلد من تركة أجداده!!

ما إن أتى الموحدين خبرُ استشهاد الشيخ حتى سلّموا لقضاء الله وقدره النافذ، وحَزَنَ الموحّدون عليه حُزْنًا عميقًا، والحزن لا يضيرنا فلقد حزن النبي ﷺ وبكى على فراق أبنائه وأصحابه -رضوان الله عليهم أجمعين-، وكان السلف إذا أتاهم نعي أحد العلماء الرّبانين بكوا لأنهم يعلمون أن فقد العلماء ورحيلهم ليس كفقد من سواهم، إلا أن قلوبنا لم تكن يومًا مُعلّقة بأشخاص، فلقد قُتل من هو خير من الشيخ، ولن يرى الله ﷻ منا إلا الصبر والرضا والتسليم لقضائه وحكمته، ثم السير على خُطى من سبقنا في طريق رسول الله ﷺ.

وبعد استشهاد الشيخ زاد إقبال الموحدين على ما حطّت يداه، لينهلوا من معين النبوة العذب، فلقد آن الأوان لتلك الكلمات أن تنتفض حيّة، ويُحيي الله بها قلوبًا، وتكون زادًا لآخرين في هذا الدرب المبارك.

وانضمَّ الشيخ لموكب العظماء الراحلين، وصار قدوةً لتلاميذه من بعده حين صدق الأقوال بالأفعال، وسالت دماؤه الطاهرة وهو ثابت لم يُبدل ولم يغير أو يسقط، كما سقط بعض شيوخه المنتكسين، لتنتهي رحلة النور التي سطرّها بمداد القلم والدم بقصْفِ صليبي آثم، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "من استنَّ فليستنَّ بمن مات، فإن الحيَّ لا تُؤمّن عليه الفتنة"<sup>(2)</sup>.

كُتِبَ:

جراح الأنصاري -غفر الله له ولوالديه-

الاثنين 10 رمضان 1438 هـ - 5 يونيو 2017 م

(2) السنن الكبرى للبيهقي (116 / 10) برقم: 20846، وجامع بيان العلم وفضله (2 / 947) برقم: 1810.